فولتين شين

كلمات يسوع السبع الأخيرة على الصليب

تأملات للزمن الأربعيني

ترجمة

الأب رائد عوض أبو ساحلية

البطريركية اللاتينة - القدس

مقدمة

هناك ثلاثة عناصر اذا اجتمعت تكوّن رسالة عظيمة. المنبر، المستمعون والحقيقة. ان هذه العناصر الثلاثة كانت حاضرة في حياة سيدنا يسوع المسيح: ان منبر رسالته الأولى كان الجبال، والمستمعون هم الجليليون الأميّون، والحقيقة هي التطويبات. ان يسوع أعطى رسالته الأخيرة من منبر الصليب، وكان مستمعوه الكتبة والفريسيون الذين يجدفون عليه، وكهنة الهيكل الذين يسخرون منه، والجنود الرومانيون الذين يقترعون على ثيابه، وبعض التلاميذ الخائفين : المجدلية بدموعها، يوحنا وحبه ومريم وحزنها الأمومي. المجدلية، يوحنا ومريم: التوبة، الكهنوت والبراءة، ثلاثة أنواع من النفوس التي تقف دائماً تحت أقدام صليب المسيح. ان هذه العظة التي يسمعها الجمهور من منبر الصليب، هي الكلمات السبع، وصية المخلص الذي بموته غلب الموت.

ذُكرت خلال الأربع آلاف سنة من التاريخ اليهودي، الكلمات الأخيرة لثلاثة رجال فقط: يعقوب، موسى واسطفانوس. ربما لأنهم يعتبرون من أهم الرجال: كان يعقوب الاسرائيلي الأول، وموسى أول من استلم الشريعة، واسطفانوس أول الشهداء. وبآخر كلمات كل واحد منهم بدأ عهد جديد مهم في تاريخ علاقة الله مع البشر. ليس كما مع آخر كلمات بطرس، بولس ويوحنا، التي لم تدخل لتكون جزءً من تراثنا الروحي، لأن الروح لم يلهم قلماً ليكشف لنا الأسرار التي تخرج من شفاههم في لحظة الموت. والى يومنا هذا، فان قلب الانسان يرغب دائماً معرفة المشاعر والأفكار أو الحالة النفسية في مثل هذه اللحظات الغريبة التي تسبق الموت.

ان سيدنا يسوع المسيح، أراد أن يترك لنا قبل موته آخر وأغلى أفكاره، انه يمثِّل كل البشرية أكثر من يعقوب وموسى واسطفانوس. في هذه الساعة الحاسمة والمهمة في حياته، يدعو كل أبنائه الى منبر الصليب، لذلك فان كل كلمة من كلماته الأخيرة وصلتنا في الانجيل لتبقى الى الأبد تعزية لنا ونبراساً لخطانا. فلم يوجد خطيب مثل يسوع المشرف على الموت. ولم يوجد أبداً جمهورٌ مثل الشعب الذي اجتمع تحت اقدام الصليب. ولم توجد ابداً عظة أبلغ من تلك الكلمات السبع التي ألقاها يسوع من فوق الصليب.

ان تلك الكلمات السبع، خلافاُ لأي كلمات أخرى قالها انسان قبل موته، لن تموت أبداً. لقد استمع اليها الكثير من المستمعين وتردد صداها تلال القدس، وتجول في مجاهل العقل البشري، وستبقي حتى قيامة الموتى من بين القبور. وحتى اليوم، تسمعها قلوبنا الفقيرة التي يجب أن تقرر، مرة أخرى، وتقبل الارتماء في أحضان المحبة الالهية التي تنبثق من جنب الفادي الطعين على الصليب.

ان الجلجلة هي جبل التجربة الجديد، حيث المُجَرِّب ليس ابليس، بل المسيح الذي يجربنا، ويطالبنا بمحبة الحب الذي ينقص في كل محاولة حب نقوم بها.

الكلمة الأولى

"يا أبتي، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون"

يبدو أنها ظاهرة نفسية أن الانسان عندما تقترب ساعة موته، يعبر عما يجول في قلبه لأقرب واغلى الناس الذين يحيطونه: ولكن الأمر كان مختلفاً لقلب القلوب. فلو أنه تكلم بمنطق تدريجي لمن أحبهم محبة كبيرة، لانتظرنا أن تكون الكلمات الثلاث الأولى بحسب الترتيب التدريجي لمحبته. الا أن كلماته الأولى كانت موجهة لأعدائه."يا أبتي، اغفر لهم..."، والكلمة الثانية موجهة للخطأة:"... اليوم ستكون معي في الفردوس"، والثالثة موجهة للقديسين:" يا امرأة، هوذا ابنك...". الأعداء، الخطأة والقديسين: هذا هو ترتيب الحب الالهي وموضع اهتمامه.

كان المشاهدون ينتظرون بقلق كلمته الأولى. وكان صالبوه ينتظرون صرخاته كما كان يفعل من قبله كل من نال عقاب الصلب. يخبرنا سنيكا أن المصلوبين كانوا يلعنون يوم ولادتهم، صالبيهم، أمهاتهم، يبصقون على كل من ينظر اليهم. ويقول لنا شيشرون، أنه كان من الضروري قطع ألسنتهم في بعض المرات للحد من تجديفاتهم الفظيعة. لذلك كان صالبو يسوع ينتظرون سماع صرخة منه، بطبيعة الحال ليس كالصرخات التي كانوا متعودون على سماعها. كذلك كان الكتبة والفريسيون يتوقعون بعض الصرخات، ولكنهم كانوا متأكدون بأن يسوع الذي بشر بالمحبة للأعداء والاحسان للمبغضين، قد نسي انجيله وتعاليمه هذه عندما سمرت يداه وقدماه. وكانوا يعتقدون أن شدة الآلام قد طيرت مع الريح قوة عزيمته ويأملون أن ينفذ صبره الظاهري. كلهم كانوا ينتظرون أن يسمعوا صراخه، ولكن لا أحد، ما عدا الثلاثة الذين كانوا يقفون تحت أقدام الصليب، كان يفكر بأن يسمع مثل هذه الصرخة. مثل تلك الأشجار العطرية التي تترك عطرها على البلطة التي تنهال عليها لقطعها، كذلك القلب المعلق على شجرة الحب أطلق من عمق ذاته ليس صرخة بل صلاة. صلاة الغفران الحلوة العذبة والمتواضعة:" يا أبتي، اغفر لهم، لأنهم لا يدرون ما يفعلون".

أن يغفر لمن؟ المغفرة لأي أعداء؟ الجندي الذي ضربه في قصر قيافا، بيلاطس الذي فضل الحكم على الله ليبقى صديقاً لقيصر، هيرودس الذي ألبس الحكمة رداء الغباء، الجنود الذين رفعوا ملك الملوك على شجرة بين السماء والأرض: أيغفر لهم؟ لماذا يغفر لهم؟ ألأنهم يعرفون ما يفعلونه؟ لا، لأنهم لا يعرفون ما يفعلونه. فلو عرفوا ما يفعلونه ومع ذلك أصروا على فعله، ولو عرفوا أي جريمة فظيعة يرتكبونها بحكمهم على الحياة بالموت، ولو كانوا يعرفون الظلم الذي وقع بتفضيلهم برأبا على المسيح، ولو عرفوا عظمة القسوة بتسميرهم على شجرة لتلك الأقدام التي سارت على التلال الأبدية، ولو عرفوا فقط ما يفعلونه وأصروا على فعله، غير آبهين لمعرفتهم بأن الدم الذي يسفكونه يستطيع أن يفديهم، لما كانوا قد نالوا الخلاص! لماذا؟ لأنهم لو لم يكونوا يجهلون فظاعة العمل الذي يرتكبونه، بصلبهم للمسيح، لحكم عليهم بالهلاك الأبدي! ولكن فقط بفضل جهلهم لجسامة الجريمة التي كانوا يرتكبونها يمكنهم أن يكونوا من عداد من يسمعون صرخة الصليب هذه. ليست المعرفة هي التي تخلصهم بل الجهل!

لا يوجد خلاص للملائكة المتمردين، تلك الأرواح التي يتزعمها "حامل النور"، لوسيفوروس، صاحب الذكاء الذي يفوق ذكاءنا، فاذا قارناه بذكائه، يشبه ذكاء الأطفال. لذلك فان تلك الملائكة كانت تعرف بوضوح نتائج قراراها كما نعرف نحن أن أثنين زائد اثنين يساوي أربعة. ان اتخاذ القرار بالنسبة لها كان حتمياً دون امكانية التراجع عنه، لذلك

فان لا فداء للملائكة. لأنهم كانوا يعرفون ما يفعلون فقد استثوا من عداد المستمعين لصرخة الغفران الصاعدة من الصليب. ليست المعرفة هي التي تخلص بل الجهل!

وعلى نفس القياس والأساس، فانه لو أننا نعرف فظاعة الخطيئة، ومع ذلك نكمل في ارتكابها، ولو كنا نعرف عظمة المحبة الكامنة في التجسد، وبالرغم من ذلك نستمر في رفضه والتغذي ببجسده، ولو كنا نعرف عمق المحبة التكفيرية التي نلناها بواسطة تضحية الصليب، وبالرغم من ذلك نستمر في رفض ملء كأس قلوبنا من حبه، ولو أننا نعرف كم من الرحمة هناك في سر التوبة، وبالرغم من ذلك نرفض حني ركبتنا أمام من بيده السلطة على حلنا من خطايانا سواء في السماء أو في الأرض، لو أننا نعرف مدى الحياة النابعة من الافخارستيا، وبالرغم من ذلك نرفض التغذي بالخبز الذي يهب الحياة الأبدية وشرب النبيذ الذي يولد ويغذي العذارى، لو أننا نعرف كم هي الحقيقة الكامنة في الكنيسة جسد المسيح السري، وبالرغم من ذلك ندير لها ظهورنا كما فعل بيلاطس، لو أننا كنا على وعي بكل هذه الأمور وبقينا بعيدين من المسيح وعن الكنيسة فاننا سنهلك! ليست المعرفة هي التي تخلصنا، بل الجهل! ان الأمر الوحيد الذي يبرر عدم وصولنا الى القداسة هو عدم ادراكنا ووعينا لعظمة محبة الله وجودته غير المتناهية.

صـــــلاة

يا يسوع ! لا أريد امتلاك حكمة العالم، لا اريد معرفة كيف تتكون حبات البرد ولا كيف تولد الظلمات ولا أين يوجد الرحم الذي يلد الثلوج، لا أريد معرفة لماذا يستقر الذهب في عمق الأرض، بينما تتصاعد النيران بخفة نحو السماء، لا يهمني لا الأدب ولا العلم، ولا يعنيني معرفة أبعاد الكون الأربعة، ولا أرغب في معرفة كم سنة ضوئية مساحته، لا أريد معرفة كيف ترقص الأرض حول الشمس ولا حتى بُعد النجوم والكواكب، تلك الشموع الليلية التي تتلألأ في السماء، ولا أرغب في معرفة عمق البحار ولا سبر غور أسرار غمارها. أريد أن أجهل كل هذه أمام معرفة طول وعرض، ارتفاع وعمق محبة مخلصنا وفادينا الذي مات على الصليب. أريد أن أكون جاهلاً بكل ما يتعلق بالعالم، وأعرفك أنت فقط يا يسوع. وبذلك أمتلك المعرفة والحكمة الحقيقية.

الكلمة الثانية

"اليوم ستكون معي في الفردوس"

بحسب بعض الأساطير، فان يوسف ومريم توقفوا بالطفل يسوع، أثناء هربهم الى مصر من غضب هيرودس الملك، في أحد الفنادق البعيدة. طلبت العذراء من صاحبة الفندق بعض الماء لغسل الطفل، فطلبت منها المرأة أن تغسل طفلها المصاب بالبرص بالماء الذي غسلت به يسوع. وما أن لمس الطفل الأبرص الماء الذي تعمد بالحضور الالهي شفي من برصه. كبر هذا الصغير ولكنه اصبح لصاً، وكان اسمه ديماس وصلب الى جانب المسيح.

لا نعرف اذا كان ديماس قد تذكر قصة طفولته هذه أثناء النزاع على الصليب، واذا كانت والدته قد قصتها عليه، واذا كان هذا هو سبب نظرته العطوفة ليسوع. ربما كان لقاؤه الأول مع الرب يعود الى اليوم الذي امتلأ فيه قلبه بالندامة عندما سمع قصة ذلك الرجل الذي كان قادما من اريحا والذي داهمه اللصوص. أو يمكننا أن نفترض بأنه ادرك وهو يتألم بقرب الفادي عندما أدار رأسه وقرأ الكتابة التي كانت تحمل اسم "يسوع"، وأصله:"الناصري" وجريمته:"ملك اليهود".

على كل حال، ها انه على مذبح صليبه، فقد اجتمعت الأسباب الكافية لتحوله الى شعلة ملتهبة من الايمان ما أن لمستها ومضة بسيطة من صليب يسوع. ان ديماس يرى صليبا ولكنه يسجد له كعرش، يرى انساناً محكوم عليه بالموت ولكنه يدعوه كملك:"اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك ". لقد اعترف بالرب على حقيقته. وسط ضجيج الجمهور الهائج والصفير الكاتم للخطيئة الشاملة في ذلك التمرد الجنوني للانسان على الله، لم يرتفع أي صوت اعتراف ومديح سوى من هذا المجرم المحكوم عليه بالموت. ان صرخة الايمان بذلك المتروك من الجميع صدرت كشهادة من لص. لو أن ابن أرملة نائين الذي أقامه يسوع من الموت قد صرخ بكلمة ايمان بملكوت من على وشك أن يفقد ملكوته، لو أن بطرس الذي رأى وجهه مشرقا كالشمس وثيابه أبيض من الثلج فوق جبل التجلي قد اعترف به رباً، لو أن أعمى أريحا الذي استعاد البصر قد أعلن عن الوهيته، لما استغربنا. لانه لو صرّح واحد منهم بايمانه، لاستعاد تلاميذه وأصدقاؤه الايمان وانتعشوا، ولآمن به الكتبة والفريسيون! ولكن في تلك اللحظة، عندما كان الموت قريبا والهزيمة وشيكة، كان وحده، خارج المجموعة الصغيرة الواقفة تحت الصليب، الذي اعترف به سيداً للملكوت وربا للنفوس، كان لصا مصلوبا عن يمينه.

في لحظة هذه الشهادة، كان الرب يغالب أعظم معركة يمكن الانتصار عليها وكانت تنبع منه قوة أعظم من قوة الشلال، كان على وشك فقدان الحياة وتخليص النفس. في هذا اليوم، الذي لم يستطع هيرودس وكل حاشيته اجباره على الكلام، ولا قوات القدس اقناعه بالنزول عن الصليب، ولا الاتهامات الجائرة في المحاكمة أرغمته على قطع صمته ولا حتى الجماهير المستهزئة القائلة:"خلصت غيرك فخلص نفسك الآن!" لم تستطع أن تنتزع جواباً من تلك الشفاه النارية، ها انه الآن يقطع صمته ويستدير نحو تلك الخليقة المائته بالقرب منه، ويخلص ذلك اللص بكلماته: "اليوم ستكون معي في الفردوس". لم ينل انسان قبله مثل هذا الوعد ولا حتى موسى أو يوحنا ولا المجدلية، ولا حتى أمه مريم.

لقد كانت صلاة اللص الأخيرة، وربما كانت الأولى ايضاً. لقد قرع مرة واحدة فقط، وطلب مرة واحدة، ولكنه بسبب هذه المرة الواحدة نال كل شيء. عندما تقترب نفوسنا من يوحنا على جزيرة بطمس، نستطيع أن ترى جوقات الملائكة السماوية البيضاء تتبع المسيح في انتصاره، عندما نقترب من لوقا على الجلجلة، نرى أول تلك الحاشية الظافرة. ان المسيح الفقير مات غنياً. كانت يداه مسمرتان على الصليب، الا أنه كان قادراً على فتح أبواب السماء

والانتصار هناك بالروح. لقد رافق اللص المسيح الى السماء. يمكننا أن نقول بأن هذا اللص مات لصاً: فقد سرق بالحقيقة السماء!

أين يمكننا أن نجد برهاناً ابلغ على رحمة الله؟ الخروف الضائع، الابن الضال، المجدلية التائبة، اللصوص المغفور لهم! هذه هي سبحة الرحمة الالهية. ان خلاصنا عزيز على الله أكثر مما هو عزيز علينا. ظهر يسوع يوماً للقديس ايرونيموس وقال له:" يا ايرونيموس، أريد أن تقدم لي أغلى ما تملك". فأجاب ايرونيموس:"يا رب، أعطيك كل كتاباتي". ولكن الرب أجابه:"لا تكفيني". فأضاف:"أعطيك حياتي بما فيها من تضحيات واماتات". ولكن الرب قال له مرة ثانية:"لا تكفيني يا ايرونيموس". فسأله ايرونيموس بنفاذ صبر:"ماذا يبقي عندي ولا أعطيك اياه يا رب؟" عندئذ أجابه الرب: "يا ايرونيموس، أعطني خطاياك".

صـــــلاة

يا يسوع! ان رحمتك للص التائب تذكرني بكلمات العهد القديم:"حتى لو كانت خطاياكم كصبغ الدود تبيض أكثر من الثلج، ولو كانت حمراء كالقرمز تصير كالصوف"(أشعيا ١، ١٨) **لقد فهمت من كلماتك للص التائب ماذا كنت تعني عندما كنت تقول:"لم آت لأدعو الأبرار بل الخطأة... ليس الأصحاء بحاجة الى طبيب بل المرضى...سيكون فرح عظيم في السماء بخاطيء واحد يتوب أكثر من التسعة والتسعين غير المحتاجين الى التوبة". والآن أفهم لماذا اصبح بطرس نائبك على الأرض فقط بعدما سقط ثلاث مرات: لكي تستطيع الكنيسة، الذي هو رأسها، أن تفهم ما هي الرحمة والغفران. يا يسوع، اني بدأت أفهم بأنني لو لم أخطيء أبدا، لما استطعت أن أدعوك "مخلصاً". ان اللص ليس الخاطيء الوحيد. وأنا خاطيء كذلك! ولكن المخلص الوحيد هو أنت.**

الكلمة الثالثة

"يا امرأة، هذا هو ابنك "

ترك ملاك منير عرش النور العظيم ونزل الى سهول يزراعيل، ولم يتوجه الى بنات الممالك والامبراطوريات، بل ذهب الى عذراء متواضعة غارقة في الصلاة وقال لها:"السلام عليك يا ممتلئة نعمة!".هذه ليست الكلمات التي يحملها الملاك المبشر بل الكلمة ذاتها التي"صارت بشراً". كانت هذه هي البُشرى الأولى.

وبعد تسعة شهور، نزل ملاك منير من جديد من عرش النور العظيم وظهر للرعاة على تلال اليهودية وعلمهم فرح المجد لله في العلى، ودعاهم للذهاب للسجود لمن لا يحتويه العالم بأسره، ذلك "الطفل المقمط والمضطجع في المذود". دخلت الأبدية في الزمان، وتجسدت الألوهية، وصار الله انساناً وحلَّ بيننا، وأصبح الكلي القدرة لا حول له ولا قوة. وبحسب كلمات القديس لوقا، فان مريم "ولدت ابنها الوحيد...ووضعته في المذود". كانت هذه هي الولادة الأولى.

وعاش يسوع في الناصرة حياة النجار البسيط. ويمكننا أن نتخيل الطفل الالهي وهو ينتظر الوقت المحدد للمعمودية بمعمودية الدم، وقد صنع صليباً خشبياً صغيراً، مستبقاً بذلك الصليب الكبير الذي سيكون يوماً ما صليبه على الجلجلة. ويمكننا أيضاً أن نتخيله، في نهاية يوم عمل طويل، يمد يديه المنهكتين من التعب، بينما أشعة الشمس قبل المغيب تطبع على الحائط المقابل ظل رجل فوق الصليب. ويمكننا أن نتخيل أيضاً، أن امه كانت تتذكر وهي تسمع صوت المطرقة فوق المسامير تلك النبؤة التي تتنبأ بأن البشر سيسمرون على الصليب من كوّن الكون.

ومن الناصرة الى الجلجلة، ومن منجرة النجار الى ملحمة البشرية الشريرة. وكان الصليب الذي حمله حتى النهاية شهادته ووصيته الأخيرة. لقد أعطى دمه للكنيسة، وثيابه لأعدائه، الفردوس للص وسيترك جسده في القبر ويسلم روحه للآب الأبدي. لمن سيعطي اذن آخر كنزين عزيزين على قلبه: مريم ويوحنا؟

أيعطي الواحد للآخر، الابن لأمه والأم لصديقه. "أيتها المرأة !" انها البشارة الثانية! ساعة الليل المظلمة، الغرفة الصامتة والصلاة التي تقود الى الجلجلة، حيث تحولت السماء الى ظلام حين مات الابن معلقاً على الصليب. أي تعزية ممكنة ! لقد قام ملاك بالبشارة الأولى، أما الثانية فيقوم بها الله ذاته، بحنوِّ صوت ابنه الحبيب.

"هوذا ابنك !". هذه هي الولادة الثانية. لقد ولدت مريم ابنها البكر دون آلام الولادة في مغارة بيت لحم، أما الآن فانها تلد ابنها الثاني يوحنا وسط آلام الجلجلة. تختبر مريم الآن آلام الولادة، ليس فقط بولادتها لابنها الثاني يوحنا، ولكن أيضاً بولادتها لكل هؤلاء الذين سيدعون عبر الأجيال المسيحية "أبناء مريم". يمكننا أن نفهم الآن لماذا دُعيَ يسوع "ابنها البكر". ليس لأن مريم كان لها أبناء آخرين بحسب الدم واللحم، ولكن لأنها ولدت أبناء آخرين من خلال آلام مخاض قلبها. إن الحكم الالهي على حواء يتجدد الآن مع مريم حواء الجديدة، لكي تلد أبناءها بالآلام.

ليست مريم فقط أم يسوع المسيح، ولكنها أيضا أمنا. ولم يُعطى لها هذا اللقب من باب المجاملة، ولا انطلاقا من الخيال أو التصور اللغوي. نحن أبناؤها حقيقة وسنبقى كذلك بكامل الحقوق، لأنها ولدتنا بالآلام تحت أقدام الصليب. لقد فقدت حواء في ظلال شجرة الخير والشر لقب الأمومة للأحياء بسبب ضعفها وعصيانها، أما الآن، فان مريم تحت أقدام شجرة الصليب، بفضل تضحيتها الشجاعة وطاعتها الوفية، فقد استعادت لقب الأمومة لجميع الأحياء. ما أجمل وما أروع أن تكون مريم أم الله أماً لنا ويسوع ابنها أخاً لنا.

صـــــــلاة

يا مريم ! كما أن يسوع وُلِدَ بالجسد في ولادتك الأولى، كذلك نحن وُلِدْنا بالروح في ولادتك الثانية.وبهذه الطريقة ولدْتِنا لعالم جديد، حيث يمكننا أن نتصل روحيا مع الله أبينا، ويسوع أخينا، ومعك أمنا ! فاذا كانت الأم لا تنسى ابن رحمها، كذلك يا مريم، فانك لا يمكنك أن تنسينا لأننا أبناءك. وكما أنك شريكة في الفداء ونيل نعمة الحياة الأبدية، كوني كذلك شريكة في الوساطة بتوسيعها.فلا شيء مستحيل عندك لأنك والدة مَنْ على كل شيء قدير. فكما أن ابنك لم يستطع أن يرفض طلبك في عرس قانا، كذلك لن يرفض صلواتك في المأدبة السماوية، حيث تملكين سلطانة على الملائكة والقديسين، لكي يحول ماء ضعفنا الى خمر القوة والشجاعة. أنتِ يا مريم ملجأ الخطأة! صلي لأجلنا تحت أقدام الصليب، صلي لأجلنا نحن الخطأة، الآن وفي ساعة موتنا. آمين.

الكلمة الرابعة

"الهي الهي، لماذا تركتني ؟"

الكلمات الثلاث الأولى التي لفظها يسوع على منبر الصليب كانت موجهة الى النوعيات التي يفضلها الله: الأعداء، الخطأة والقديسين. أما الكلمتين التاليتين فيكشفان عن الألم الذي يجتاح الانسان–الاله المصلوب. فالكلمة الرابعة ترمز الى الآلام التي يعاني منها مَنْ يشعرون بأن الله تركهم، أما الخامسة فتعبر عن آلام الله المتروك من الانسان.

عندما لفظ الرب الكلمة الرابعة على الصليب خيم ظلام دامس على كل الأرض. يُعتقد عادةً أن الطبيعة لا تأبه بألم الانسان. فيمكن أن تموت أُمَّة من الجوع وتبقى الشمس والكواكب تدور في مساراتها العادية. يمكن أن يحارب الانسان أخاه ويلطخ بالدماء الحقول المغطية بالورود، بينما يغني عصفورٌ هارب من نيران ورعب المعركة أغنية السلام العذبة. يمكن أن تتمزق قلوبنا من الألم حزناً على موت صديق عزيز علينا، بينما يظهر قوس القزح بشكل احتفالي في عنان السماء حتى لو تناقضت ألوانه البهية مع كأس الألم الذي نجرعه. ولكن الآن، فان الشمس تكف عن الاشعاع بسبب مأساة الصليب! ربما كانت المرة الأولى والأخيرة التي ينطفيء فيها النور الذي يضيء النهار مثل شمعة حتى ولو أنه كان يجب أن يستمر في الاشعاع بحسب المقاييس البشرية. وسبب كل ذلك يكمن في أن الطبيعة لم تستطع أن تبقى غير مبالية أمام أشنع عمل ظلم يقوم به الانسان وهو قتل خالق الطبيعة. فاذا كانت نفسية الرب غارقة في الظلمة فان الشمس التي خلقها لا يمكنها الا أن تغرق في الظلمة أيضاً.

في الحقيقة أن كل شيء كان غارقاً في الظلمة! لقد حُرِمَ من أمه ومن تلميذه الحبيب، باعطائهما الواحد للآخر، أما الآن فان الآب في السماوات قد تركه. "إيلي إيلي لاما شبقتني". "الهي الهي لماذا تركتني؟" انه البكاء لا بل النحيب، بتعبير اللغة العبرية التي تظهر السر المخيف لاله متروك من الله ذاته. الابن ينادي الله أباه. يا له من تناقض عجيب مع الصلاة التي علمها يوماً: "أبانا الذي في السماوات..."! يبدو أن طبيعته البشرية تنفصل بطريقة غريبة عجيبة سرية عن الآب السماوي، أم أن الأمر مختلفٌ: والا لماذا يدعوه قائلاً: "الهي الهي"؟ كما أن النور والحرارة تنحجب عندما تغطي الغيوم الشمس، حتى ولو أن الشمس تبقى في السماء وراء الغيوم، هكذا الأمر الآن مع يسوع: يبدو أن وجه الآب محجوبٌ في تلك اللحظة المخيفة التي يحمل فيها خطايا العالم. ان يسوع يتحمّل هذا الألم بدلاً عن كل واحدٍ منا لكي نستطيع أن ندرك ما معنى أن تكون الطبيعة البشرية محرومة من الله، من تعزيتها وخلاصها الالهي. لقد كان هذا العمل التكفيري الأسمى لثلاثة أنواع من البشر: الذين يتركون الله، الذين يشكون بحضور الله والذين لا يبالون بوجوده.

كان تكفيره قبل كل شيء عن الملحدين، هؤلاء الذين في منتصف ذلك النهار المظلم آمنوا جزئياً بالله، كما يؤمن جزئياً اليوم هؤلاء الذين يعيشون في ظلمة الليل. ثم كفَّر أيضاً عن هؤلاء الذين بالرغم من معرفتهم لله، يعيشون وكأنهم لم يعرفوه قط، عن هؤلاء الذين قلوبهم مثل جوانب الطريق حيث بذرت محبة الله بذاراً يدوسها الجميع، عن هؤلاء الذين قلوبهم مثل الأرض الحجرة حيث تسقط بذار محبة الله وتُنسى سريعاً، عن هؤلاء الذين قلوبهم مثل الشوك حيث تُخنق بذار محبة الله بسبب الاهتمامات الأرضية. لقد كفَّر أيضاً عن الذين كان لديهم الايمان وفقدوه، عن الذين كانوا قبلاً قديسين أما الآن فقد أصبحوا أعداء. لقد كان عمل الله الفدائي لكل الذين يتركون الله: فانه في اللحظة التي كان فيها متروكاً استحق لنا النعمة لكي لا نكون أبداً متروكين من قِبل الله. كان عملاً تكفيرياً عن كل من ينكرون الله، عن كل أولئك المسيحيين الذين يتركون كل جهد عندما لا يشعرون بقرب الله، عن هؤلاء الذين يربطون بين سلوك طريق

الخير برغد العيش، عن كل الشكاكين ابتداءً من الذين سألوه: "من أرسلك؟". لقد كفّر يسوع عن كل التساؤلات التي ما زال العالم يتساءلها باستمرار:

"لماذا يوجد الشر؟"

"لماذا لا يجيب الله على صلواتي؟"

"لماذا أخذ الله والدتي؟"

"لماذا... لماذا...لماذا ؟"

لقد تم التكفير عن كل هذه التساؤلات في اللحظة التي سأل الله ذاته لماذا ؟ لله.

أخيراً، لقد كفر عن كل مبالاة البشر في العالم الذين يعيشون وكأنه لم يكن هناك مذود بيت لحم وصليب الجلجلة. عن هؤلاء الذين كانوا يلعبون بالزهر بينما كانت تتحقق مأساة الفداء، عن هؤلاء الذين يتخيلون أنفسهم آلهة فوق كل واجب ودين وقانون، معتقدين بأن لا علاقة لهم بكل هذه الأمور. أعتقد أنه بعد ألفي سنة فان لامبالاة العالم المعاصر أكثر ألماً من عذابات الجلجلة. لا ضرورة من الاعتقاد بأن اكليل الشوك والمسامير الحديدية كانت أكثر بشاعة لجسد مخلصنا من لامبالاة أيامنا هذه، حيث لا اكتراث باهانة قلبه أو تسبيحه وتعزيته.

صـــــــــلاة

يا يسوع! انك تكفر الآن عن تلك اللحظات التي لا نكون فيها لا باردين ولا حارين، ولا مواطنين للأرض ولا للسماء، حتى ولو أنك تتألم الآن بين السماء والأرض" متروك من جهة ومرفوض من جهة أخرى. لقد حجب عنك الآب وجهه، لأنك لم تكن تريد أن تترك البشرية في خطيئتها. ولكن، لانك بقيت أميناً لأبيك السماوي، أدارت لك البشرية ظهرها: وبهذه الطريقة وجدت الدرب الصحيح لتجمع بين البشرية والآب بعهد مقدس. لا أحد يمكنه أن يقول بأن الله لا يعرف ما معنى الشعور بالترك بما أنك كنت متروكاً. لا أحد يمكنه أن يقول بأن الله لا يعرف جراح وحيرة قلب يتساءل عندما لا يعود يشعر بالحضور الالهي، بما أن حضور الله كان محجوباً عنك في هذه الساعة.

يا يسوع، اني أفهم الآن الألم، الترك والعذاب، لأني أرى خسوف الشمس. ولكن يا يسوع لماذا أجد أنه من الصعب أن أتعلم؟ كما أنك لم تبني صليبك ولكنك تبنيته، كذلك علمني أن أتبنى واقبل صليبي الذي لا أختاره لنفسي. علمني، أن كل شيء في العالم لك، ما عدا أمراً واحداً، إرادتي: بما أن هذا هو الشيء الوحيد الذي أملكه، فانه الهبة الوحيدة والحقيقية التي يمكنني أن أقدمها لك. علمني أن أقول:"لتكن مشيئتك لا مشيئتي". حتى عندما لا أراك، هبني النعمة لأقول:"حتى ولو تركتني أو قتلتني، فاني أومن بك وأضع رجائي فيك". قل لي يا رب: حتى متى سأتركك تتلوى على الصليب؟

الكلمة الخامسة

" أنـــا عـطـشـــان "

ان هذه أقصر كلمة بين الكلمات التي نطقها يسوع على الصليب، وهي بالأصل كلمة واحدة على خلاف الكلمتين التي ننطقها في لغتنا. فان المخلص وهو يلقي خطبته على الصليب، لا يلعن صالبيه، ولا يعنِّف التلاميذ الخائفين على هامش الجموع، لا يلوم الجنود الرومانيين، لا يشجع مريم المجدلية، لا يلفظ كلمات حب لتلميذه الحبيب، ولا كلمات وداع لامه الغالية. لا يتوجه في هذه اللحظة الى الله! تزهر كلمة واحدة من أعماق قلبه وتنفجر من شفتيه: "أنا عطشان".

هو الإله الانسان، الذي أطلق النجوم في مساراتها عبر الكون ونظَّم الكواكب السماوية في الفضاء الشاسع، والذي "صمم الأرض كسوار حول معصمه"، وبإشارة من اصبعه تدور المجرات والعوالم، من قال "البحر لي والأنهار التي تجري في آلاف الوديان والينابيع التي تنساب بين التلال التي لا تُحصى"، هو الآن يطلب ماءً من الانسان! ولكنه لا يطلب ماءً أرضياً، لا بل قليلاً من الحب. كما لو أنه قال:"أنا عطشان... للحب!". الكلمة الأخيرة تشير إلى ألم الإنسان دون الله، هذه الكلمة تشير إلى ألم الله بدون الإنسان. إن الخالق لا يستطيع أن يعيش بدون الخليقة، والراعي بدون القطيع، عطش المسيح للحب دون الماء الروحي للمسيحيين. ولكن ماذا فعل المسيح لكي يشعر بهذا الحق طالباً الحب مني أنا الإنسان؟

كم أحبني الله؟ اذا أردت أن أعرف كم أحبني الله، عليَّ أن أترك كلمة "الحب" ترن بعمق معناها، هذا المعنى الذي غالباً ما نسيء فهمه. الحب يعني قبل كل شيء العطاء، وقد أعطى الله قدرته للعدم، ونوره للظلمة، ونظامه للفوضى والخواء: فكانت الخليقة. الحب يعني أيضاً أن يكشف عن ذاته لمن يحب، وان الله، بواسطة الكتاب المقدس أوحى لنا عن طبيعته ومواعيده لخلاص البشرية الساقطة: فكان الوحي. والحب يعني الألم عن مَن يحب، لهذا يتحدثون عن سهام وأشواك الحب، أي عن أمر يجرح ويؤلم، وها هو الله يتألم لأجلنا على شجرة الصليب، لأن "ما من حبٍّ أعظم من هذا: أن يعطي المرء حياته من أجل أحبائه". الحب يعني أن يصبح واحداً مع من يحب، ليس فقط وحدة جسدية ولكن خاصة، وحدة روحية، وقد أحبنا الله لدرجة أنه أسس سر الافخارستيا، لكي نتمكن من الثبات فيه وهو فينا في هذه الوحدة الثابته من خلال خبز الحياة. الحب يعني أخيراً، الرغبة في البقاء دائماً مع من تحب، والله أحبنا لدرجة أنه وعدنا بمسكن مع الآب، حيث يملك سلام وفرح لا يستطيع العالم أن يمنحنا اياه ولا الزمان أن ينزعه منَّا: أي الفردوس.

بكل تأكيد لقد عبَّر المسيح عن الحب الى أقصى الحدود. فان المسيح لم يكن بامكانه أن يفعل أكثر مما فعله لكرمته. خاصة وقد سكب كل ماء حبه الأبدي في قلوبنا الفقيرة القاحلة، فلا نستغربنَّ أنه اليوم عطشان للحب لهذه الدرجة. فاذا كان الحب متبادلاً، فله كل الحق في طلب محبتنا! فلماذا لا نجيبه؟ لماذا نترك القلب الالهي يموت عطشاً للحب البشري؟ فانه يمكن أن يتذمر ويعاتبنا بهذه الكلمات.

ها ان كل الأشياء تهرب منك،
لأنك أنت الذي تهرب مني!
أشياء غريبة عجيبة تافهة تدعو الى الشفقة...
لماذا تبعد أموراً صغيرة حبك عني؟
"لأني لا أرى أحداً، فلا أريد أن أتعب نفسي سُدىً".

- انه يقول-

" يجب أن تستحق الحب وتكون به جديراً ".
فكيف استحققته أنت،
يا من بين كل البشر الضعفاء كالفخار
أنت من المساكين والصغار؟
ويحك، ألا تعرف!
كم أنت غير مستحق لأي نوع من الحب!
مَنْ ستجد مَنْ سيحبك، أيها الحقير؟
أنا، فقط أنا.

صـــــلاة

يا يسوع! لقد أعطيتني كلَّ شيء، بينما لم أعطك شيئاً بالمقابل. كم مرَّةً أتيت لتقطف عنباً من كرمة نفسي، فوجدت عنباً برياً! كم مرَّةً بحثت، ولكنك لم تجد شيئاً، قرعت على بابي فوجدت باب نفسي مغلقٌ في وجهك! كم مرَّةً طلبت مني أن تشرب، ولكنني أعطيتك فقط خلاً ممزوجاً بمرارة!

كم مرَّة يا يسوع، خفتُ أن امتلكك، لأنني أعرف بأن امتلاكك يعني أن لا أمتلك شيئاً آخرَ غيرك. انني أنسى غالباً، أنه عندما أمتلك النار لستُ بحاجة للشرارة، وعندما أمتلك شمس حبك، عليَّ أن أنسى شمعة حبِّ القلب البشري، عندما أمتلك ملء فرحك، عليَّ أن أنسى جزئية الأفراح الأرضية. يا يسوع، إن قصتي الحزينة بأن لا أبادلك القلب بالقلب، والحبَّ بالحب. خارجاً عن كل العطايا التي يمكن أن يمتلكها الانسان، هبني العطية الحلوة بأن أكون مشغوفاً بك وشفوقاً مثلك.

انني صخرةٌ قاسيةٌ لا خروفٌ وديع،
لذلك أستطيع أن أبقى تحت أقدام الصليب
أيها المسيح،
وأعد، قطرة بعد قطرة،
دمك الذي ينسكب ببطء
دون أن أبكي.
ليس هكذا أحبتك تلك النساء،
اللواتي بألم كبير استسلمن للبكاء والنواح.
ليس هكذا أحبك بطرس،
الذي عندما أنكرك سكب الدموع الذوارف.
ليس هكذا أحبك لص اليمين،
الذي تأثر وتاب طالباً الغفران.
ليس هكذا احبتك الشمس والقمر،
اللوتي خبأن وجههن وحجبنه
خلف السماء الخالية من النجوم.
يا للرعب ويا للعتمة الظلماء
في منتصف النهار!
أنا وحدي لا أشعر بشيء.
أما أنتَ فلا تهتم بل تبحث عن خروفك
لأنك الراعي الصالح للقطيع.
يا مَنْ أنتَ أعظم من موسى،

التفت اليَّ، وانظر في عيني،
والمس بحنانك هذه الصخرة مرة ثانية.

الكلمة السادسة

"تمَّ كُلُّ شيء"

منذ البدء أراد الله أن يكوِّن الانسان على صورة ومثال ابنه الحبيب. وبعد أن لوَّن السماء باللون الأزرق والأرض بالأخضر، خلق الله بستاناً بديعاً، هو وحده قادر على الاتيان بمثله. هناك وضع الانسان المخلوق على صورة ابنه. ولكن، بطريقة غريبة عجيبة، دوَّى صدى عصيان لوسيفورس على الأرض، فتشوهت صورة الانسان وتدمرت وفقدت بهاءها وبريقها.

فأراد الآب السماوي برحمته اللامتناهية، أن يعيد للانسان نقاءه الأصلي ومجده الأصيل. ولكي يجعل منه لوحة جديدة شبيهة بالنموذج الأصلي، أراد الله أن يرسل الى الأرض ابنه الذي على صورته كان قد خلق الانسان: وبهذه الطريقة ترى الأرض من جديد كيف كان يريد الله أن يكون الانسان. ولكي يحقق هذا العمل، كان بامكان القدرة الالهية أن تستعمل تلك العناصر التي استُخْدِمَت في الهزيمة، محولاً اياها الى أدوات خلاص. وهذا ما حدث ضمن المخطط الالهي للفداء، فقد تعاونت الأدوات الثلاثة التي أدت الى سقوطنا واستخدمت لفدائنا. فبدلاً من الانسان العاصي، آدم، وضع الانسان المطيع، يسوع؛ وبدلاً من المرأة المتكبرة، حواء، وضع عذراء متواضعة، مريم؛ بدلاً من الشجرة في وسط البستان، وضع شجرة الصليب. وهكذا أصبح الفداء جاهزاً وكاملاً. لقد تمم العمل الذي أوكله اليه الآب. وهكذا اشتُرينا ودُفِعَ الثمنُ غالياً. لقد تم خلاصنا بفضل معركة لم يُستعمل خلالها الحجارة الخمس التي استخدمها داود ليقتل جوليات، ولكن الجراحات الخمس المخيفة التي انطبعت على يدي وقدمي وجنب يسوع؛ معركة لم يُستخدم فيها سلاحاً برّاقاً تحت أشعة الشمس في منتصف الظهيرة، ولكن جسداً معلقاً كالسارية تحت سماء مظلمة؛ معركة لم تكن صرختها :"اسحقوهم واقتلوهم"، بل " يا أبتي اغفر لهم"؛ معركة لم يُستَخْدَم بها الحديد والنار، بل قطرات دماء؛ معركة الخاسر فيها هو من يقتل العدو. وها قد انتهت هذه المعركة. وخلال الساعات الثلاث الأخيرة، نرى يسوع يهتم بشؤون الآب. لقد وضع الفنان اللمسات الأخيرة على تحفته الفنية، وبالرغم من فرح الأقوياء، صرخ نشيد الظفر:" تمَّ كلُّ شيء".

لقد وصل عمله الى نهايته وكماله، ولكن عملنا؟ الله وحده يمكن أن يسمح لنفسه باستعمال هذه الكلمة، أما نحن فلا. لقد تم عمل استرجاع الحياة الالهية للبشرية ولكن عملية توزيع استحقاقاتها ما زالت مستمرة . لقد تمم عملية تعبئة الخزانات بالحياة الاسرارية من ينابيع الجلجلة، ولكن عملية فتحها لتغرق نفوسنا لم تنتهِ بعد بل ما زالت مستمرة. لقد بنى الأساسات، وما علينا الا أن نكمل البنيان فوقه. لقد أتمَّ بناء قوس النصر، عندما فُتِحَ جنبه بالحربة وسال منه الدم الثمين، وما علينا الا الدخول الآن. ان الرب على الباب يقرع، ولكن يد الباب من جهتنا فقط، ويمكننا فقط وحدنا أن نفتح له ليدخل. ان يسوع قد قام بعمل التقديس وبقي علينا أن نقوم بالشركة والوحدة معه. يعتمد علينا اتمام العمل الذي أوكله الينا، وقدرتنا على قبول حياته، فنصبح بذلك "مسحاء" آخرين. في الواقع أن الجمعة المقدسة التي تم فيها الآلام لا يمكن أن تحقق اهدافها الا اذا حملنا صليبنا وتبعناه.

ان الخطيئة هي أكبر مانع لتتميم هذا العمل،

وما دامت تسود الخطيئة في العالم،

سيظل المسيح يُصلَب في قلوبنا.

رأيت ابن الله ماراً مكللاً باكليل الشوك.

" ولكن ألم يتم كل شيء، أيها الرب؟
- سألته-
"... وكل الألم والقلق الذي تحملته؟"
التفت اليَّ بنظراتٍ شامخةٍ وقال:
"ألم تفهم بعد؟
انظر، انَّ كلَّ نفسٍ هي جبلُ جلجلة
وكلَّ خطيئةٍ هي صليب".

صـــلاة

يا يسوع! ان الفداء هو عملك، والتعويض هو عملي، بما أن التعويض يعني أن اصبح أمراً واحداً معك، مع حياتك، مع حقيقتك ومحبتك. ان عملك على الصليب قد تمَّ، ولكن عملي هو أن أنزلك عن الصليب، بما أنَّ:

حيثما يوجد صمت حولي نهاراً أو ليلاً
فان بكاءً يجعلني أرتجف،
لأنه قادمٌ من الصليب...
عندما سمعته أول مرَّة خرجت أبحث
فوجدت انساناً مصلوباً على عرش
وكان صليباً.
فقلت له: "سأنزلك من هناك".
حاولت أن انزع المسامير من قدميه
ولكن الرجل قال لي:
"اتركني، فلا أستطيع أن أنزل من هنا
لأن كل رجل، كل امرأة أو طفل
سيأتون معأ وينزلونني".
ولكني أجبته:
"انني لا أحتمل بكاءك ونحيبك.
ماذا يمكن أن أفعل لأجلك؟"
" اذهب الى العالم" -أجاب-
"وقُلْ لكُلِّ مَنْ تلقاه،
أَنَّ هُناكَ رَجُلاً مُعلَّقاً على الصليب".

انك على الصليب، وعلينا أن ننزلك عنه. لقد بقيت معلقاً هناك لمدة طويلة من الوقت! ومن خلال رسولك بولس قلت لنا بأن الذين يتبعونك عليهم أن يصلبوا جسدهم وشهواتهم. ان عملي لن يكتمل الا عندما آخذ مكانك على الصليب. اذا لم أعش الجمعة المقدسة في حياتي، لن أستطع أن أختبر صباح الفصح؛ اذا لم ألبس معطف المجنون، لن أستطع أن أرتدي ثوب الحكمة الأبيض؛ اذا لم يتوج رأسي اكليل الشوك، لن أستطع أن أختبر مجد الجسد؛ اذا لم تحدث المعركة، لن أستطع أن اذوق فرحة النصر؛ اذا لم اعاني من العطش، لن أستطع أن أُقبل على المائدة السماوية؛ اذا لم أعانق الصليب، لن أصل الى القبر الفارغ.

علمني يا يسوع، أن أتمم هذا العمل، لأنَّ أبناء الانسان لن يستطيعوا الدخول في المجد الأبدي الا اذا مروا من خلال الألم.

الكلمة السابعة

"يا أَبَتِ، في يَدَيكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحي"

عندما طُرِدَ آدم من الفردوس الأرضي، وبعدما فُرِض عليه عقاب الأشغال الشاقة، كان يطوف طلباً للغذاء الذي كان يجب أن يربحه بعرق جبينه. وأثناء تجواله وقع نظره على جثة ابنه هابيل التي لا حياة فيها، فحمله على كتفه ووضعه في حضن حواء. ومهما تحدث آدم وحواء مع ابنهما هابيل لم يكن يُجيب. لم يكن هكذا صامتاً في حياته. رفعا يده ولكنها سقطت بلا حِراك في حضن الأم. لم يحدث هكذا أبداً لهذا الغلام. نظرا في عينيه: فكانتا باردتان تنظران في الفراغ بطريقة غريبة. لم يرياه أبداً هكذا سلبياً لا يشعر بشيء. فتساءلا ما عسى قد حدث، ولم يجدا جواباً على هذا السؤال. فتذكرا حينذاك الكلمات: "وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها فانك يوم تأكل منها تموت موتاً"(تكوين ٢/١٧). كان موت هابيل أول ميتة في تاريخ العالم والبشرية.

وتمر القرون في عجلة الزمان التي لا تتوقف، فاذا بهابيل الجديد، المسيح، يُحكم عليه بالموت من اخوته من جنس قائين، الذين أعمتهم الغيرة. والحياة الغارقة في الأعماق اللامتناهية تستعد الآن للعودة الى البيت الأبوي. لقد كانت كلمته السادسة:"تمَّ كلَّ شيء، لقد أنتهيت العمل الذي وكلني به الآب". وبالمقابل، فان كلمته السابعة والأخيرة موجهة نحو المستقبل:"في يديك أستودع روحي". كانت الكلمة السادسة موجهة للعالم، بينما السابعة كانت موجهة للآب. كانت السادسة كلمة وداع للعالم، أما السابعة فاشارة إلى دخوله في الفردوس. مثل تلك الكواكب التي تبلغ دورتها بعد زمن طويل وتبدأ من جديد سيرها، وكأنها تريد بذلك أن تحييِّ مَنْ رسم لها المسيرة، هكذا يسوع، الذي أتى من السماء، أتمَّ الآن عمله وأكمل مسيرته، وبعودته الى الآب، الذي رسم له مخطط الفداء العظيم، فانه يحييه قائلاً:"يا أبتِ، بين يديك أستودع روحي".

عاد الإبن الضال الى بيت الآب. أليس يسوع في الواقع شبيه بالإبن الضال؟ لقد ترك بيت الآب السماوي مدة ثلاثِ وثلاثين سنة ليذهب إلى بلادٍ بعيدة، إلى عالمنا. وهكذا بدأ يوزع ثروته الروحية تاركاً للجميع فرصة الاستفادة منها، مبذراً بكرم لا متناهٍ الخيرات الإلهية من قدرة وحكمة، موزعاً بحرية إلهية عطية الغفران والرحمة. وفي ساعته الأخيرة هذه، وزع كل ممتلكاته على الخطأة، مقدماً كل شيء لفداء العالم حتى آخر قطرة من دمه. لم يبقَ أيُّ شيء يغذيه سوى شراب الخذلان والخل ومرارة عدم العرفان بالجميل من قِبَل البشرية. أما الآن، فانه يستعد للعودة الى بيت الآب، ومن بعيد قبل أن يصل اليه يرى وجهه. لذلك يقطع الصمت بصلاته الأخيرة والكاملة على منبر الصليب:"يا أبتِ، في يديك أستودع روحي".

إن مريم هناك تحت أقدام الصليب. بعد قليل سيُنزَل هابيل الجديد الذي قتله اخوته، عن خشبة الخلاص وسيُمدَّد في حضن حواء الجديدة وعلى قدميها. سيكون موت الموت! وعندما تحين اللحظة المحزنة، فان مريم التي تبكي الآن، ستشعر وكأنها عادت الى بيت لحم. والرأس المكلل بالشوك الذي لم يجد أفضل من مخدة الصليب يستريح على صدر مريم كما كان وهو طفلٌ في بيت لحم. وتلك العينين اللتين كان يشع منهما نور الشمس وبريق القمر تغوص في الظلمة، هي ذات العينين اللتين كانتا تبحلقان من بين القش في ذلك المذود. والقدمين المرتخيتين المخرمتين من آثار المسمارين، هي ذاتها التي قدَّم المجوس أماهما الذهب واللبان والمُرّ. والشفتان المحمرتان الملطختان بالدماء، هي ذاتها التي رضعت في بيت لحم من افخارستيا جسدها وحليب ثدييها. واليديان اللتان لا تستطيعان الآن أن تحملان شيئاً

سوى آثار المسمارين، هي ذات اليدين الصغيرتين لطفل بيت لحم اللتين كانتا تداعب أنف البقرة والحمار بالقرب من المذود.

ان احتضانها ليسوع تحت أقدام الصليب يشبه تماماً احتضانها له طفلاً بالقرب من المذود. انَّ لحظة الموت الحزينة تلك، التي تدعونا للتفكير بلحظة ولادتنا، جعلت مريم تعود بذاكرتها من جديد الى بيت لحم.

صـــــلاة

لا يا مريم، ان بيت لحم لم تَعُد! ان هذا ليس مذوداً ولكن صليباً؛ وليست لحظة الولادة بل لحظة الموت؛ واليوم ليس يوم فرحٍ مع الرعاة والملوك، بل موت مع اللصوص. لا، ليس مغارة بيت لحم، بل الجلجلة.

ان بيت لحم شبيهة بيسوع وبك أيتها الأم بدون خطيئة، حيث أعطيته للعالم؛ أما الجلجلة فشبيهة بهذا العالم الخاطيء الذي يعود بنا الى الخلف.ان هناك قاسم مشترك بين اعطائك اياه بالقرب من المذود، وحملك له الآن بالقرب من الصليب: انها خطاياي. ليست هذه ساعتك يا مريم بل ساعتي؛ ساعة شروري وخطيئتي. فلو لم أخطيء، لما رفرف الموت الآن بأجنحته المظلمة فوق جسده الملطخ بالدماء؛ لو لم أكن منتفخاً بالكبرياء، لما ظُفِرَ اكليل الشوك للتكفير عوضاً عني؛ لو كنت أقل عصياناً ولم أسِرْ في الطريق الواسع الذي يؤدي الى الدمار، لما اخترقت المسامير قدميه؛ لو كنت أكثر اصغاءً لصوت الراعي الذي كان يناديني وينبهني من الوقوع في الشوك والحفر، لما جفت هكذا شفتاه؛ لو كنت أكثر أمانة، لما احمرت خداه من قُبْلةِ يهوذا الخائنة.

يا مريم، اني أجد نفسي بين ولادته وموته الخلاصي. أطلب منك يا مريم: أنك عندما تحتضنيه بين ذراعيك، فانه لا يعود أبيض كما عندما نزل من لدن الآب؛ سيكون أحمر، لأنه يأتي مني. بعد ثوانٍ قليلة سيُسلم ابنك روحه الى الآب وجسده بين يديك. وقطرات الدم الآخيرة تتساقط من كأس الفداء العظيمة، ملطخة الصليب صابغة الصخور، التي ستتفتت من الذعر؛ تكفي قطرة واحدة من هذا الدم الذكي لتفدي عشرة آلاف عالم. يا مريم أمي، تشفعي لي لدى ابنك الالهي لغفران الخطايا التي غيرت بيت لحمك الى جلجلة. اطلبي منه، يا مريم، في هذه اللحظات الأخيرة المتبقية، أن يمنحنا النعمة لكي لا نصلبه من جديد ولا نطعن قلبه بالسيوف السبعة ثانية.

يا مريم، تضرعي الى ابنك المائت كي يحييني... يا مريم! لقد مات يسوع... يا مريم!